الطفلة القمرية

تتغير رؤيتنا للأشياء التي حولنا، حسب حالتنا الصحية، كم كنت أجرب أن أغمض عيني وأتعامل مع كل ما هو حولي دون أن أراه، إنها لعبتنا الطفولية المفضلة التي نمارسها في الكثير من ألعابنا دون أن ندرك أننا بها نتعرف على حواسنا وقدراتنا وعلى العالم الخارجي بحضورها وغيابها، عندما نحزم أعيننا بشريط ونبحث عن بعضنا البعض. أما عندما ننام ليلا ويسرح شيء بسيقاننا -بسبب انحباس دوران الدم فيها-كنا نحسبه خطى ذئب يمشي بداخلنا ونردد "أيها الذئب اذهب فعمي الذئب سيلحق بك" ماذا لو لم يذهب الذئب وأصر على حبس دماء القدم ولم نستطع الوقوف مجددا؟ كهذه المرأة؟ بعد أن أوصلتُ الخالة أردت المغادرة فلم تدعني أذهب بل ألحت على بقائي، واستطلاع أخباري: "زينب، يتيمة توفيت والدتي منذ فترة وجيزة، أعيش برفقة أختي وداد، ونحن مهددتين بالطرد في أي لحظة من مسكننا المتواضع". أسرعت بإخبار الخالة بوضعي وبكل شيء كي لا تكثر الأسئلة وتتركني بالمقابل أرحل. غير أنها ما زادت إلا تشبثا بي وبفكرة إحضاري وأختي لمنزلها لنعيش معها، لم أستطع الوثوق بها، أردت مساعدتها لتدرك بيتها لا أقل ولا أكثر. شعرت بخوف شديد

عندما اتصلت برجل يلقبونه ب "القلدة" ليأتي كي أدله على عنوان بيتنا المؤقت ليحضر أختي، طمأنتني الخالة المقعدة، وضمتني لصدرها الدافئ الضخم، وهي تصور لي طيب العيش معها، فكرت بعقلي الطفولي عما يمكن أن تقدمه لنا هذه السيدة، على الأقل مسكن وملبس وأكل وشرب. على هذا الأساس رافقت "القلدة" لنحضر أختي وداد، التي ما إن رأتني حتى ضمتني إليها بقوة، وعاتبتني على طول الغياب، قدمت لها ما تبقى من الشطيرة والذي خبأته بشوني، وحكيت لها عن الخالة التي ستحتوينا في بيتها، وتحبنا كما سنحبها. أختي وداد تثق بي كثيرا، غير أنها الطفلة القمرية التي لا يجوز لها الخروج ليلا كي لا تؤذيها حرارة الشمس، فهي كائنة ليلة. تجد صعوبة الإبصار نهارا، وحتى بشرتها الرقيقة تتأذى. طبيبة كانت تشتغل والدتي عندها هي التي استطاعت اكتشاف داء أختي المجهول، وأكدت أن لا علاج لها سوى الوقاية. حاولت أن أشرح للقلدة الأمر. غير أنه لم يستوعب معنى طفلة قمرية.

منذ ذلك اليوم وأنا وأختي نجوب شوارع المدينة طولا وعرضا نبيع الورد، والمناديل الورقية، وأوراق الحظ، أختي تشتغل ليلا، وبالنهار تنظف منزل الخالة، وأنا أشتغل نهارا وأنظف منزل الخالة ليلا. لم أكن أنا وأختي الوحيدتين اللتين تترأس عصابتنا الخالة فقط، بل وراءها تنظيم ليس بالهين،

يسرقون الأطفال ويتاجرون بأعضائهم، ومنهم من له جسم سليم يُبعث للعمل في البيوت أو البيع أو سعي دراهم بدعوى المرض أو العجز أو الحاجة لاستعطاف قلوب الناس، وعندما نكبر تلقي بنا لدور الدعارة لتهان أجسادنا، وعندما نهرم تلقي بنا في الشارع، إذ تخلص صلاحيتنا بوقت مبكر بسبب كل الشقاء الذي نعانيه. هل الملاجئ ودور الأيتام والخيريات أغلقت أبوابها وصودرت مفاتيحها في بلادنا؟ إن كانوا يتجاهلوننا عنوة لأننا نحرك اقتصاد البلاد من جهة خفية لذلك يتغاضون عنا، فهذا جرم يعترف به القانون دون أن يطبقه. الواحد منا إن كبر وأصبح مجرما قد يعتدي على أحدهم، وهذا الأحد سيحتاج للطبيب والفحص وكشوف وأدوية تقتنى من الصيدليات، ومصاريف، ومواصلات، وأجر يدفع لمحامين، وسجانين، وتجار مواد غذائية، وضمان عيش لآخر يقتات وأبناءه بتغسيل الموتى وحفر القبور...ياه كم تساهم هذه الخالة في تنمية الاقتصاد عالميا!

مبدأ الخالة كان "أنا والطوفان من بعدي" وكان نفسه مبدأ الجهات المسؤولة والتي من المفروض أن تسعى لفك مثل هذه الجرائم الجماعية التي تساهم في إبادة أجيال بأكملها، لكنه قانونهم الطاغي على حساب أجسامنا الضعيفة: "أنا والطوفان من بعدي" عنوان قانون البشر لا الغاب فقط.